محاضرات المناهج النقدية الغربية

الأستاذ/ عدنان فوضيل

ماستر2/تخصص أدب حديث ومعاصر قسم اللغة والأدب العربي

1 - في مفهوم البنيوية :

1-1 - البنيوية لغة :

اشتقّت كلمة "بنيوية " من الفعل الثلاثي (بنى) وتعنى البناء أو الطريقة وكذلك تدّل على معنى التشييد والعمارة والكيفية التي يكون عليها البناء أو الكيفية التي شيّد بها [1] .

ولو عدنا إلى الجذور الغربية لهذه الكلمة لوجدنا أنها مشتقة من الفعل اللاتيني "Struere" الذي يعني البناء والتشييد ، لذلك فكلمة البنية في معناها تحمل معنى "الكلّ " أي ترابط الأجزاء فيما بينها مما يجعلها متماسكة [2].

1-2 بنيوية اصطلاحا :

لقد وجد مصطلح البنية مشكلة في تحديد مفهومه مما أدّى إلى تعدّد التعريفات والمفاهيم لهذه الكلمة ، إذ نجد مجموعة من النقاد اللغويين يختلفون في إعطاء مفهوم قارّ لهذا المصطلح.

تعرّف البنية على أنّها " نسق من العلاقات الباطنة (المدركة وفقًا لمبدأ الأولوية المطلقة للكلّ على الأجزاء) له قوانينه الخاصة " [2]، أي أننا نرى أنّ البنية في مجموعها كل مكوّن من عناصر متماسكة يتوقف كل عنصر منها على ماعداه .

أمّا "جيفي شترواس" يقرّ بكلّ بساطة أنّ " البنية تحمل –أولا وقبل كل شيء- طابع النسق أو النظام فالبنية تتألف من عناصر يكون في شأن أي تحوّل يعرض للواحد

منه أن يحدث تحوّلا في باقي العناصر الأخرى" [1]، فالبنية تتميز بوحدة النظام وتماسكه فتحوّل أيّ عنصر داخل هذا النظام يقتضي بالضرورة تحوّل في باقي العناصر .

ومن خلال كل ما سبق من تعريفات يمكننا أن نستنبط خصائص تميّز هذه البنية نعدّدها كالآتي :

أ/ الشمولية : هي سمة من السمات التي تميّز البنية " يعنى إتساق وتناسق البنية داخليًا، أي أنّ وحدات البنية تتّسم بالكمال الذّاتي وليست مجرّد وحدات مستقلّة ، جمعت معًا قسرًا وتعسفًا بل هي أجزاء تتّبع أنظمة داخلية من شأنها أن تحدّد طبيعة الأجزاء وطبيعة اكتمال البنية ذاتها، وهكذا تضفي هذه القوانين خصائص أشمل وأعم من خصائص الأجزاء التي تتكون منها البنية، كما أنّ هذه الأجزاء تكتسب طبيعتها وخصائصها من كونها داخل هذه البنية لا من كونها تنطوي على هذه الخصائص من دون دخولها في البنية وعلاقاتها (تمامًا هو وضع المفردة في الجملة) " [1] بمعنى أنّها هي الناتج المترتب عن ترابط الأجزاء و التّأثرات المكوّنة للبنية، ويفهم من خلال هذا التعريف أنّ البنية تتّسم بالكليّة ومفادها أنّها مكتفية بذاتها ومترابطة العناصر في التّظام الكلّي ولا تحتاج إلى وسيط خارجي.

ب/ التحوّلات : هي الخاصية الثانية من خصائص البنية ،فهي كل تغيير يحدث داخلها فالبنية لا تعرف الثبات والإستقرار، فهي في حركة دائمة ذلك "أنّ ((المجاميع الكليّة)) تنطوي على ديناميكية ذاتية تتألف من سلسلة من التغيرات الباطنة التي تحدث داخل ((لنسق)) أو ((المنظومة)) ، خاضعة في الوقت نفسه لقوانين ((البنية)) الداخلية دون التوقف على أيّة عوامل خارجية . وليس الحديث عن ضرب من ((التوازن الديناميكي)).-عند بعض دعاة البنيوية- سوى تعبير عن هذه الحقيقة الهامّة ألا وهي أنّ البنية لا يمكن أن تظلّ في حالة سكون مطلق بل هي تقبل دائما من ((التغييرات)) ما يتسق مع الحاجات المحدّدة من قبل ((علاقات)) النّسق و((تعارضاته))" [1] بمعنى أنّ عناصر البنية في تحوّل دائم وهي خاضعة لقوانين داخليّة يفرضها النّظام الموجودة فيه ، فهي التي تفرض وتبرّر تحوّلات هذه العناصر.

ج - التنظيم الذاتي :

هي الخاصيّة الثالثة للبنية، وهي تنظيم يحدث داخلها بحيث أنّ عناصرها تنظم نفسها بنفسها، مما يحفظ لها وحدتها وتماسكها وهو " يتعلق بكون البنية لا تعتمد على مرجع خارجها لتبرير وتعليل عملياتها وإجراءاتها التحويلية ، فالتحوّلات تعمل دائما على صيانة القوانين الد خلية و دعمها ، تلك التي تخلق وتبرر هذه التحوّلات ، وتعمل كذلك على إغلاق النظام كي لا يحيل أو يرجع إلى غيره من الأنظمة، بمعنى أنّ اللغة لا تبني تكويناتها ووحدتها من خلال رجوعها إلى أنماط ((الحقيقة)) الخارجية ، بل من خلال أنظمتها الداخليّة الكاملة، فالمفردة داخل الجملة تعمل وتتحرك ليس لأنّها تحيل إلى ما هو خارجها (الطالب مثلا) وإنّما لأنّ موقفها وتصريفاتها الأفقية والعمودية تؤدي إلى إفراز وظائفها وتهيئ لها عملية الدلالة و الإحالة" [1] ، بمعنى أنّها لا تحتاج إلى عامل خارجي لينظمها، بل تنظّم نفسها بنفسها دون الرجوع إلى المؤثرات الخارجية.

/منهج البنيوي النشأة والتطور :

ارتبط المنهج البنيوي في نشأته بالفكر الفرنسي وامتدّ في جميع انحاء المعرفة الإنسانية، تخصص في ميدان البحث اللغوي والنقد الأدبي، وهو نموذج تصوري مستعار من علم اللغة وبذلك تكون اللغة هي الرّحم الأوّل لنشأة هذا المنهج ،"ولكن إذا كانت نقطة البدء في الفكر البنيوي هي كتابات بعض مفكرين القرن التاسع عشر (وما قبله في حقيقة الأمر) فإن الظروف العامّة التي مرّت بها فرنسا بعد حركة الفكر ساعدت مساعدة فعّالة في ظهور البنائية كحركة فكرية متكاملة ومتمايزة ، كما أنّها هي التي أعطت البنائية نكهة فرنسية واضحة لا يمكن أن نخطئها أو نعلقها"[1] .

ومن بين المبشرين لهذا المنهج "فرويد " "ماركس " " دو سوسير " على وجه الخصوص وليفي شترواس " الذي يعدّ أبا البنائية ومؤسسها ، ويرى أنّ البنيوية منهج يمكن تطبيقه على أيّ نوع من الدراسات .

وفي سنة 1928م ، تمّ تطبيق المنهج البنيوي على الأدب وذلك من خلال أعمال "جاكبسون" و "تينيانوف"، وكانت تلك هي البدايات الأولى للبنيوية الأدبية [3] التي " تركّز في جوهرها على " أدبية الأدب وليس على وظيفة الأدب (المتعة)،أي أنّ الناقد

البنيوي يهتمّ في المقام الأول بتحديد الخصائص التي تجعل الأدب أدبا .... ولكي يحقق ذلك عليه أن يدرس علاقة الوحدات والبنى الصغيرة بعضها ببعض داخل النّص في محاولة للوصول إلى تحديد للنّظام أو البناء الكلّي " [1].أي أنّ النص هو موضوع الدراسة فقط دون إخضاعه لمؤثرات الخارجية.

بذلك تكون البنيوية منهج نقدي يقارب النصوص مقاربة آنيّة ، وتتمثّل النص على أنّه بنية لغويّة متعالقة، و وجودًا كليًّا قائمًا بذاته مستقلا عن غيره يدخل في تركيبه عناصر شتّى، لكلّ عنصر منها مهمّة داخل هذا النص بحيث لا يمكن دراسة عنصر بمعزل عن العناصر الأخرى ،ولكلّ عنصر وظيفة تكمّل وظيفة العنصر الآخر [2].

البنيويون يرون أنّ النص " نسيج يشبه نسيج العنكبوت تنفك الذّات داخله وتضيع فيه كأنّها عنكبوت تذوب في الإفرازات المشيّدة لنسيجها " [3] ، وبالتّالي حينما نتحدّث عن البنيوية فإنّ حديثنا يدور دائما عن اللغة ومفهوم البنيويين الجديد عن وظيفتها داخل النص الأدبي الذي تنظر إليه البنيوية كعلم ذرّي منغلق على نفسه ، وموجود بذاته ، فتدخل تبعا لهذا المفهوم في مغامرة للكشف عن لعبة الدّلالات ، وهو نفس ما يؤكده "جرمان" بقوله :" إنّ القضيّة الأساسيّة عند البنيوية هي أنّ كلّ لغة كل ((النصوص)) بناء لمعنى مأخوذ من معجم ليس لمفرداته معان خارج البناء الذي يضمّها " [1]، معنى ذلك أنّ النص عند البنيويين لا يخرج عن نطاق النص ذاته.

لقد تعاملت البنيوية مع النثر أكثر من الشّعر في مراحلها المبكّرة ،وهذا ما جاء في كتاب الرؤى المقنعة لـ "كمال أبي ديب" حين يقول :" في المرحلة المبكّرة من العمل على تصوير هذا المنهج لم تكن الدراسة البنيوية قد دخلت بشكل جاد مجال الشّعر بل كانت تتعامل باستمرار تقريبا مع النثر (والسرد بشكل خاص) ، وكانت الدراسة الرئيسيّة المألوفة هي دراسة " ليفي شتراوس" و "ياكبسون" لقصيدة "بودلير" " القطط " ولقد ظلّ الشّعر أصعب مجالات العمل" [2]، بمعنى أنّ ياكبسون هو السبّاق الأوّل في تطبيق هذا المنهج على الشّعر برغم من صعوبة الدراسة فيه.

2 1 الروافد التاريخية للبنيوية :

1-1-2 مدرسة جنيف

إن أوّل مدرسة لغويّة حديثة هي مدرسة سوسير باسم مؤسّسها "فرديناند دو سوسير"، ويسميها بعض اللغويين "مدرسة جنيف" ،وقد غيّرت طبيعة التفكير اللغوي فوضعت حدًّا بين عهدين من الدراسة اللغوية (التقليدية / الحديثة)، وقد قام روّاد هذه المدرسة بدارسة اللغة على منهج جديد يستند إلى أسس محدّدة أو يتّسم بسمات مخصوصة، لعلّ أهمّها هو النّظر إلى اللغة على أنّها نظام من العلامات اللغوية [1].

2-1-2- مدرسة الشكلانيين الروس :

نعتبر الرّافد الثاني من الرّوافد التاريخية للبنيوية ،وقد " تبلورت في روسيا في العشرينيات من القرن الماضي، وكانت هذه المدرسة تقاوم النزوع الأيديولوجي الذي صاحب وأعقب الثورة الاشتراكية، لذلك كانت تحليلاتها لمفهوم الشكل قريبة جدّا من مفهوم البنية ...

3-1-2 حلقة براغ :

ترأس هذه الحلقة "رومان ياكبسون" الذي هاجر إلى "روسيا" والتحق بها، فنشر دعوته الأدبية اللغوية التي توصل إليها هو وأقطاب المدرسة الشكلانية الروسية ، فتأصّلت في جهوده مع "موكارفسكي" "فاشيك" وغيرهم من أعلام هذه الحلقة، حيث تبنوا محور الرّ من الذي اكتشفه "سوسير" والدراسة التعاقبيّة للغة، كما اهتموا بالأصوات في الشّعر ونظام المفردات في الشّعرية، وقادهم هذا إلى تحديد نظرية في معنى الشّعر وعلاقات التتابع وفي نظام أشكال المفردات وعنوا بالبنية النحوية [1].

4-1-2- مدرسة النّقد الجديد :

تأسست في أمريكا بزعامة "جون كرورانسوم" ، حيث ترتكز هذه المدرسة "على المفاهيم اللغوية ابتداءً من المفاهيم الوظيفيّة التي انتشرت لدى الغربيين إلى نفس المفاهيم التي سنسفر بعد ذلك عند الالتقاء في تيّار البنيوية العريض .

- مبادئ المنهج البنيوي ومستوياته

3- 1مبادئ المنهج البنيوي :

يقوم المنهج البنيوي كغيره من المناهج على مجموعة من الأسس الفلسفية والفكرية والأيديولوجية التي تميّزه عن غيره وهي كالتالي :

3-1-1 النزوع إلى الشكلانية :

لقد تعلقت البنيوية بالمدرسة الشكلانية، وذلك بإعطاء الأهمية للشكل الذي يؤدي بنفسه إلى المعنى المطلوب ،وقد عدّت الكتابة شكلاً من أشكال التعبير قبل كل شيء ،وكذلك اللغة بالنسبة لها لا تحيل على أي معنى وبالتالي فاللغة والكتابة في منظورها تبقى مجرد شكل، فالاهتمام بالشكل والمضمون كانتا أوّل مبادئ المدرسة البنيوية الذي أخذته عن التيار الشكلاني الذي مثلته كل من "المدرسة الشكلانية الروسية" ، و"حلقه براغ" [1].

3-1-2 رفض التاريخ :

لقد كانت المناهج السابقة تعتمد في دراستها للظواهر على المحور التاريخي والاجتماعي، إذ نجد أنّ المفكر الفرنسي "هيبولتين" (1893م-1828م) الذي كان يرى أنّ الظاهرة الأدبية تخضع في دراستها إلى ثلاثة عناصر أساسية :

1 العرق : الذي ينتمي إليه الكاتب ، أصله وسلالته

2 الوسط :المحيط الجغرافي والإجتماعي للكاتب

3 الزمن : التطور التاريخي الذي يقع تحت دائرة الكاتب، وهو يكتب إبداعه ، وبظهور البنيوية كحركة جديدة جاءت ترفض كلّ القيم الاجتماعية التي يتبنى عليها المجتمع ومنها التاريخ وذلك لانعدام فائدتها ،فنادت بموت التاريخ وكل القيم ،وقامت بدراسة الظاهرة في وقتها الآني دون العودة لتطور هذه الظاهرة عبر مراحلها التاريخية [1].

3-1-3 رفض المؤلف :

جاءت فكرة رفض المؤلف امتدادا لرفض التأثير الاجتماعي بحيث " أنّ كلّ نص لا يخلو من إبداع كاتبه ، وحضوره مهما بلغ حجم التهميش و الإقصاء ، وهكذا اهتمت المناهج النقدية الغربية بالنّص وأهملت جوانب خطيرة تتمثّل بالقيم الفكرية الإنسانية، التي يقف في مقدمتها المؤلف منشأ النّص وأسدل الستار عن المناهج القديمة التي ظلّ فيها المؤلف فارس

النص بلا منازع " [2] فالبنيوية تعطي السلطة للنص لأنّها تركّز على الأنساق الدّاخلية المكوّنة له بحيث تنفي الذّات المؤلفة وكل القدرات الاجتماعية والتاريخية .

3-1-4 رفض المرجعيّة الاجتماعية :

إنّ البنيوية في حقيقة الأمر لا ترفض المرجعية ، بل ترفض العودة إلى المجتمع في تحليل أيّ عمل إبداعي ،أي أنّها تنفي وترفض التأثير المباشر للمجتمع في المبدع و إبداعه ، وقد صرّحت "ناتالي صاروط" بأنّ "لاشيء يوجد خارج الألفاظ" فالبنيوية بذلك ترفض كل القيم الروحية والإنسانية جملة وتفصيلا ، ولا تؤمن بمرجعية الكتابة الاجتماعية ويعدّونها من أساطير الأوّلين ،فلا وجود لصلة بين المبدع ومجتمعه [1] .

3-2 مستويات المنهج البنيوي :

يقترح البنيويون بعض المستويات في دراسة النص الأدبي وفق المنهج البنيوي ، ومن بين هذه المستويات المستوى الصوتي الذي تدرس فيه الحروف ورمزيتها وتكويناتها الموسيقية، أمّا في المستوى الصرفي فيخصّ الكلمات بالدراسة لاكتشاف خصائصها الحسية والتجريدية والحيوية والمستوى الأسلوبي ، فهو يسعى إلى تحديد دلالة الكلمات [1] .

ينتقل المحلل البنيوي في الدراسة من أصغر وحدة إلى أكبر وحدة تدخل في تركيب البنية ، فهو في البدء يخصّ الحروف والكلمات بالدراسة ،وهذا ما أشرنا إليه في المستويين السابقين. أمّا في المستوى النحوي فهو يبحث في بناء الجملة سواء كانت فعلية أو اسمية أو بنية الجملة، وهو يهدف من خلال ذلك إلى دراسة تركيب الجمل وطرق تكوينها وخصائصها الدلالية والجمالية ، كما يقوم في مستوى القول بتحليل التراكيب التي حدّدها في المستوى النحوي لمعرفة خصائصها الأساسية والثانوية [2] .

يهدف الدارس البنيوي في المستوى الدلالي الى تحليل المعاني المباشرة وغير المباشرة والصور المتصلة بالأنظمة الخارجية عند حدود اللغة والتي ترتبط بعلوم النفس والاجتماع ، أمّا في المستوى الرمزي فتقوم فيه المستويات السابقة بدور الدال الجديد الذي ينتج مدلولا جديدا يعود بدوره إلى المعنى الثاني أو ما يسمى باللغة داخل اللغة [1] .

فالمحلل البنيوي يقوم بدراسة جميع هذه المستويات أولا وعلاقتها المتبادلة مع بعضها البعض والتداعي الحر بينهم والأنشطة المتمثلة فيها وثانيا هو ما يحرر في نهاية الأمر البنية الأدبية المتكاملة .

وفي الأخير يمكن أن نقول بأنّ البنيوية مرّت بمراحل كثيرة قبل أن تظهر كمنهج نقدي على الساحة النقدية ،يُعوّل عليها في تحليل النصوص الشعرية و النثرية ،وقد جاءت بنتائج إيجابية استثمرت في هذا المجال وأثرت الدرس النقدي.